أثر الدراسات القرآنية والإعجازية في تطور الدرس البلاغي العربي

د. لخلافة كريم، مختبر الخطاب وتكامل العلوم والمعارف*

تقديم:

الحمد لله خالق الإنسان ومعلمه البيان، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين بكتاب عربي مبين. وبعد،

من المعلوم والمقرر عند الدارسين والباحثين في تاريخ البلاغة العربية، أن بلاغة الإنجاز في تراثنا العربي سبقت بلاغة التنظير بقرون، أي أن البلاغة العربية وجدت بالفعل وبالقوة قبل أن يبدأ التنظير لها مع اللغويين والنقاد والبلاغيين المؤسسين الأوائل.

فمنذ العصر الجاهلي كانت البلاغة محَقَّقة في كلام العرب وأشعارهم وخطبهم. ولما جاء الإسلام ازدادت مساحة الإنجاز البلاغي اتساعا ونموا. ولم يكن المتكلم العربي حينئذ يجحد أو ينكر قيمة البلاغة والفصاحة، رغم أنه لم يكن على علم بقواعدها. فسجيته وطبيعته تميل إلى الكلام البليغ الفصيح.

وقد حظيت البلاغة في تراثنا العربي بالعناية والاهتمام، وكثرت فيها التصنيفات، إلى أن بلغت مبلغا كبيرا من التطور والازدهار مع البلاغي عبد القاهر الجرجاني. ثم تعرضت لما تعرضت له سائر العلوم اللغوية من الانحسار وكثرة الشروح والتلخيصات. ومع ذلك ظلت البلاغة في أعين القوم.

أما في العصر الحديث، فرغم عودة الاهتمام إلى البلاغة، وتجديد النظر إليها، بعد إدراك قيمتها في تحليل الخطاب وأهميتها البالغة في الحجاج والتواصل والتأويل، إلا أن وضعها في المدارس والجامعات يدعو الباحثين إلى بذل جهود مضاعفة لتطوير مناهجها وطرق تدريسها.

تتناول هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل أثر الدراسات القرآنية المبكرة في تطور الدرس البلاغي، وفي نقله من الوجود بالقوة، إلى الوجود بالفعل، أو بعبارة أخرى من بلاغة الإبداع والإنجاز إلى بلاغة التنظير والتقعيد.

وستتوقف الورقة البحثية كذلك عند إسهام علماء اللغة كأبي عبيدة وابن قتيبة في هذا الجهد من خلال عملهما "مجاز القرآن" و "المشكل في تأويل القرآن"، وستبحث في جهود علماء الكلام وعلماء الدراسات الإعجازية كالرماني والخطابي والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، لتقف عند جهودهم المعتبرة في الارتقاء بالدرس البلاغي العربي من المحاولات التأسيسية الأولى في مجال التنظير إلى الرقي والإزدهار مع عبد القاهر الجرجاني.

* أستاذ باحث في البلاغة والنقد الأدبي بجامعة مولاي إسماعيل، الكلية متعددة التخصصات بالرشيدية(المغرب).

وسأحاول مقاربة هذا الموضوع انطلاقا من العناصر التالية:

- ✓ البلاغة العربية وسؤال البدايات؛
- ✓ البدايات التأسيسية للبلاغة العربية؛
- ✓ دراسات اللغويين والمفسرين الأوائل ؛
- ✓ الدراسات الإعجازية و أثرها في تطور الدرس البلاغي؛
- ✓ ازدهار الدرس البلاغي مع عبد القاهر الجرجاني؛
- ✓ الدرس البلاغي العربي بعد عبد القاهر الجرجاني.

1) البلاغة العربية وسؤال البدايات:

إذا كان التنظير البلاغي العربي قد جاء متأخرا إلى ما بعد عصر التدوين، أو إلى عهد الجاحظ، فإن الإنجاز البلاغي العربي كان قديما، بدأ مع بداية الإبداع الشعري والنثري عند العرب، أي منذ العصر الجاهلي. وهذا الإبداع لم يكن مقتصرا على الشعراء ولا الخطباء ولا الرجاز والكهان، بل شمل غيرهم، فالعرب كانوا أهل بلاغة وفصاحة حتى في محادثاتهم العادية، وفي تحاورهم اليومى. وقد بدا ذلك واضحا في تفاعلهم مع الشعراء والخطباء، وفي ملاحظاتهم العفوية، وانتقاداتهم الانطباعية، وفي موازناتهم ومفاضلاتهم بين الشعراء.

فلما جاء القرآن الكريم، فتح عهدا جديدا للبلاغة العربية، فتضاعف هذا الإنجاز البلاغي في العصر صدر الإسلام. إذ كان للقرآن الكريم أثره البارز في الرقي بالبلاغة في عصر صدر الإسلام، فقد أعجز العرب وأدهشهم بما تضمنه من أساليب البيان والبلاغة، فزاد الإبداع والإنجاز البلاغيين في تلقي هذا الخطاب وقراءته وتفسيره. يقول عبد العزيز عرفه: "والقرآن الكريم هو: معجزة النبي صلى الله عليه وسلم. وآيته الكبرى الدالة على صدقه فيما يبلغ عن ربه. وهو معجزة بيانية عقلية تخاطب القلوب والعقول معا، ورسول حي يسير بين الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد تحققت له من الأسباب التي صار بها معجزا، وذلك لنزوله بلسان عربي مبين وازدهار اللغة العربية وقت نزوله ازدهارا عظيما حتى أصبحت قادرة على أن تتحمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين كلامين: كلام هو الغاية في البيان فيما تطيقه القوى، وكلام يقطع هذه القوى ببيان ظاهر المباينة له من كل الوجوه، واشتهار العرب بالبلاغة والفصاحة وقدرتهم على التمييز بين كلامين: كلام بليغ من صنع البشر، وكلام معجز هو من عند الله"[1].

إن المتمعن في كلام كفار ومشركي قريش، وهم يحاولون الرد على الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي وصفهم القرآن الكريم، بعدما استرقوا السمع، ليجد ملاحظات بلاغية فيما يقولون وينشِؤون ويكفي

1 - قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، عالم الكتب، ط1 (1405هـ/1985م)،ص 796.

لبيان ذلك قول الوليد بن المغيرة[1]: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني. والله، ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول، حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته"[2].

وقد تضاعف هذا الإنجاز البلاغي في العصر الأموي وفي العصر العباسي الأول مع الفرق الكلامية، والأحزاب السياسية المتصارعة التي سخرت، من ضمن ما سخرت في معاركها وخصوماتها، الشعر والخطابة والمناظرة والرسائل، فبلغت البلاغة العربية إبداعا وإنجازا مبلغا كبيرا في الرقي والازدهار بفعل تلك العوامل كلها.

وبالإضافة إلى المنجز البلاغي الذي بدأ مبكرا في تراثنا العربي، فإن عصور هذا الإنجاز منذ العهد الجاهلي عرفت ملاحظات نقدية عفوية تضمنت إشارات بلاغية، فالمتأمل في الروايات الواردة عن العصر الجاهلي في هذا المجال، والتي نجدها في كتب النقد القديمة كالموشح للمرزباني الأغاني للأصفهاني وغيرهما، يدرك قيمة هذه الملاحظات وعلاقتها بالبلاغة. بل إن المتمعن في كلام كفار ومشركي قريش، وهم يحاولون الرد على الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف القرآن الكريم المعجِز، ليجد ملاحظات بلاغية فيما يقولون وينشِؤون ويكفي لبيان ذلك قول الوليد بن المغيرة ردا على أبي جهل لما طلب منه أن يقول في القرآن قولا يبلغ قومه بعدما علموا بسماعه للقرآن الكريم وتأثره به، فقال قولا منه: "وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني. والله، ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول، حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته"[3].

وقد كان عمر رضي الله عنه عالما بالشعر، ناقدا له، ومن ذلك قوله في زهير بعدما عده شاعر الشعراء: "لأنه لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه."[4] وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه بليغا مفوها، إذا خطب أو قال شعرا. وكذلك كان الخلفاء الأمويون والعباسيون، وتطور ذلك عندهم لما جعلوا للأدب مجالس أدبية يستمعون فيها إلى الشعراء، ويدلون بمواقفهم من الشعراء،

1 - قال ذلك جوابا لأبي جهل لما طلب منه أن يقول في القرآن قولا يبلُغ قومه، بعدما علموا بسماعه للقرآن الكريم وتأثره به، وقد جاء هذا في حديث طويل رواه الحاكم ووافقه الذهبي.

2 - ينظر كتاب قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة،ص 67 و77.

3 - جاء هذا في حديث طويل رواه الحاكم ووافقه الذهبي.

4 - نقد الشعر عند العرب في الطور الشفوي ص 60

ويوازنون ويفاضلون بينهم، ويوجهون أحيانا، وكل ذلك تضمن من الإشارات والملاحظات البلاغية ما تضمن.

2) البدايات التأسيسية للبلاغة العربية

- ✓ **دراسات اللغويين والمفسرين الأوائل:**

تطورت الدراسات القرآنية ذات المنحى البلاغي بفضل اهتمام العلماء ببيان وتهذيب الخطاب القرآني للعامة ولحديثي العهد بالإسلام، فكثر الاهتمام بالدراسات اللغوية والبلاغية، وصار التفقه في علوم اللسان العربي من أولويات أهل الشريعة. "إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهما بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم. فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان"[1].

وكان علماء العربية القدامى مرتبطين منذ وقت مبكر بالخطاب القرآني. بوصفه مصدرا من مصادر اللغة العربية، ينطلقون منه ومن غيره من المصادر المعروفة لوضع قواعدهم، وللاحتجاج لآرائهم ومذاهبهم في النحو واللغة. وزاد من تعلقهم وارتباطهم بالخطاب القرآني ما تميز به هذا الخطاب من إعجاز بياني، شغَلَ البلاغيين الأوائل بالبحث عن أسراره الأسلوبية والبيانية.

ولم يكن القصد من انشغال العلماء ببلاغة الخطاب القرآني الرد على المشككين والملحدين والمنكرين لإعجازه البياني فقط، بل تجاوز ذلك إلى غايات أخرى أهمها فهم معاني الخطاب القرآني ومقاصده، يقول بدوي طبانه: "ولم تكن علاقة الدين بمنهج البحث البياني مقصورة عن الدفاع عن القرآن والتماس وجه إعجازه من طريق بيانه، بل إن له به علاقة أخرى، وهي الضرورة التي يحسها المسلم من جهة فهم معانيه، ولا يتم هذا الفهم إلا بتعرف أساليبه، وما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد. وتلك الغاية لا تقل في الأهمية عن الغاية الأولى، وهي التصدي لهجمات الطاعنين ورد طعناتهم وكيدهم للدين أو لمعتنقيه"[2].

ويعد أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي البصري من أقدم العلماء الذين توقفوا عند البيان في الخطاب القرآني، فأسهموا في بداية الدرس البلاغي العربي من خلال الاشتغال على الخطاب القرآني، فقد ألف كتاب "مجاز القرآن"، فعالج فيه " كيفية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية،باحتذاء أساليب العرب

[1] - البيان العربي، ص 16.

[2] - البيان العربي ص 16.

في الكلام، وسننهم في وسائل الإبانة عن المعاني"[1]. فجاء كتابه غنيا بالمأثور من كلام العرب الذي يساعد على فهم معاني القرآن الكريم. وكان أبو عبيدة يقصد بكلمة "مجاز"، "المعنى اللغوي الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي، وهو المعبر والممر والطريق، فكان معنى "مجاز القرآن" طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية، يستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها، أو عن طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين. يقول أبو عبيدة: "ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حذف، ومجاز ما كف عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين... ومجاز المضمر استغناء عن إظهاره، ومجاز المكرر للتوكيد، ومجاز المجمل استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدم والمؤخر، ومجاز ما يحول من خبره إلى خبر غيره، بعد أن يكون من سببه، فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو. وكل هذا جائز قد تكلموا به"[2].

ثم جاء بعده ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن"، فأبدع وأجاد في تهذيب ما خفي عن العامة من آي القرآن الكريم، إذ وضح بعض ما أشكل عليهم، مما لا يمكن تفسيره بالاعتماد على ظاهر لفظه، مما فيه مجاز أو استعارة أو كناية أو غير ذلك من الأساليب التي خرجت عن ظاهر معناها إلى غرض آخر اقتضاه المقام، واستدل على ذلك بالمأثور من كلام العرب. فكان عمله إسهاما حقيقيا في الدرس البلاغي العربي. وقد دافع ابن قتيبة عن "المجاز"، ووضح أنه ضرورة لغوية تعبيرية. يقول: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص للعموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن."[3]

ولاشك أن البلاغة العربية من علوم اللسان العربي التي لا بد منها في فهم النصوص الشرعية وتفسيرها، فالوقوف عند الأساليب البلاغية ودلالاتها ومعانيها ومقاصد الشارع وسياق التخاطب... مما لابد منه في الفهم والتفسير والاستنباط. ولذلك كان علماء الأصول مهتمين بهذه الأساليب وبدلالاتها، وكان المفسرون يعدون الإلمام بعلوم العربية من شروط المفسر. ولا غرابة في ذلك، فإن الأساليب البلاغية

---

[1] - المرجع نفسه ص 17.

[2] - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولة (1374ه/1954م)، الجزء الأول، ص18-19.

[3] - تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، دون طبعة ولا تاريخ ، ص 20-21.

متنوعة، ومعانيها متعددة تعدد سياقات التخاطب ومقامات إجرائه، فدلالة الأمر، ليست دائما هي الأمر الحقيقي، فقد يدل على الندب وعلى الإباحة وعلى النصح والتوجيه وعلى التعجيز وعلى التهديد، والاستفهام قد يفيد التحسر والتقرير والإنكار والالتماس والتعجب والاستغراب والتوبيخ وغيره ذلك مما يرتبط بمقاصد المرسِل. والخبر قد يدل على الأمر أو الطلب.

ومعظم الأساليب الخبرية والإنشائية قد تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان مقامية تستخلص من السياق. وبالتالي فمعرفة ذلك مما لا بد منه في التعامل مع النصوص الشرعية قراءة وفهما وتفسيرا واستنباطا. لذلك اهتم علماء البلاغة المتقدمون بهذه الدلالات والمعاني الفرعية، منذ وقت مبكر، نجد ذلك عند أبي عبيدة في "مجاز القرآن"، إذ نجده يفسر الآيات التي أفادت أساليبها معاني مقامية، بقوله "ومجازه كذا"، أو ببيان المعنى المراد، قال في قوله تعالى: (أتجعل فيها من يفسد فيها)،"جاءت على لفظ الاستفهام، والملائكة لم تستفهم ربها، وقد قال تبارك وتعالى: (إني جاعل في الارض خليفة)، ولكن معناها معنى الإيجاب. أي: إنك ستفعل"، ثم استدل بقول جرير لعبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركبَ المطايا *** وأندى العالمين بُطونَ راحِ

وبين أنه "أوجب ولم يستفهم"، أي أن الاستفهام في بيت جرير أفاد التقرير لا السؤال.

ثم أضاف: "وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب: ألست الفاعل كذا؟ ليس باستفهام ولكن تقرير." [1]

ونجد عند ابن قتيبة في كتابه"تأويل مشكل القرآن"[2]، بحثا مهما في دلالات الأساليب وفي دلالات الصيغ، يدل على الوعي الدقيق بأساليب العرب وما تؤول إليه عندما تجري على خلاف أصل الوضع. وهذا من المباحث المهمة في البلاغة العربية وفي اللسانيات الحديثة.

ونصادف عند ابن فارس في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة" بحثا مهما تحت عنوان معاني الكلام، بين فيه ما تؤول إليه أساليب الخبر والاستخبار من دلالات مقامية.[3]

- ✓ **الدراسات الإعجازية والكلامية**

كثرت الفرق الكلامية في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث واشتدت الفرقة بينها، واتصل خلافهم وجدلهم حول القرآن الكريم، وظهرت "محنة خلق القرآن الكريم"، والقول بالصُّرفة، فأخذ الإلحاد يصوب سهامه نحو الطعن على النظم القرآني، والبيان العربي بوجه عام. وانبرى علماء

---

[1] - ينظر مجاز القرآن، ج 1 ص 35-36.

[2] - ينظر كتاب تأويل مشكل القرآن ص275 وما بعدها،

[3] - ينظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق، مكتبة المعارف- بيروت، ط 1 (1414هـ/1993م)، ص 183 وما بعدها.

المسلمين يدافعون عنهما، وتمخض دفاعهم عن آراء في البيان العربي وإبراز محاسنه، ووضع المقاييس التي يقاس بها، إذ تمكن الجاحظ من الدفاع عن البيان العربي وإبراز قيمته، وتحديده وجمع عدة تعريفات للبلاغة، وأبرز محاسن النظم القرآني"[1].

ويعد أبو عمرو الجاحظ أبرز علماء الكلام الذين كان لهم دور بارز في بداية التنظير البلاغي،يتضح ذلك الاهتمام في كتابه "البيان والتبيين"، فقد اهتدى بصحيفة بشر بن المعتمر التي انطلق منها للحديث عن قواعد البيان، سواء من حيث ملاءمة الكلام لمعانيه ومن يوجه إليهم من طبقات المستمعين، أو من حيث جمال الألفاظ ورصانتها ورشاقتها. وقد جاء كتابه "البيان والتبيين" غنيا بمباحث البلاغة، كالإيجاز والاطناب والسجع والازدواج والاقتباس والتقسيم واللغز والأسلوب الحكيم والاحتراس والهزل يراد به الجد والاعتراض والتعريض والكناية والاستعارة. وقام بالتنظير للخطابة وبين ما يجعل الخطيب مقنعا ومؤثرا في المخاطبين، بل نبه على ما يحول بينه وبين جمهوره من عيوب، مما له صلة باللباس أو الحركة أو اللسان، وهو "الذي انتبه إلى أن اللغوي، لا يستطيع مهما أوتي من معرفة أن يُحاجِجَ في مجال الإقناع حول المسائل الدينية ما لم يستعنْ بعلم الكلام، وعلم الكلام هو علم الحجاج العقلي في المجال الديني."[2]

ونجد في كتابه "الحيوان" إشارات دقيقة إلى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والمثل والكناية وغيرها. لذلك "فهو يعد بحق مؤسس البلاغة العربية"، كما قال شوقي ضيف[3].

ثم تطورت المحاولات الكلامية إلى دراسات إعجازية؛ فقد قام علماء الكلام بتأليف رسائل بلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وفي مقدمة مؤلفاتهم " النكت في إعجاز القرآن للرماني"، وقد فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني. ومن المتكلمين الذين خاضوا في إعجاز القرآن القاضي عبد الجبار، أستاذ الاعتزال في عصره.

لقد نشط المتكملون في وضع المباحث البلاغية قصد تفسير الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وفي مقدمة مباحثهم "النكت في إعجاز القرآن للرماني"، وقد فصل القول في البلاغة وأقسامها وجعلها عشرة هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن

---

1 - قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عرفة، ص 799.

[2] - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول 28.

[3] - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص 369.

البيان. وجاء بعده الباقلاني الأشعري فنوَّه بنظم القرآن العجيب، وذلك في كتابه "إعجاز القرآن"، واعتبره الذروة في البلاغة، ونفى أن يكون مدار إعجازه "البديع" أو أقسام البلاغة التي عددها الرماني. ومن المتكلمين الذين خاضوا في إعجاز القرآن القاضي عبد الجبار، أستاذ الاعتزال في عصره.

✓ **دراسات نقدية على أسس بلاغية:**

يأتي كتاب "البديع" لعبد الله بن المعتز في مقدمة تلك الدراسات، وهو من التأليفات المبكرة في علوم البلاغة، ولم يفرده المؤلف للبديع، بل تطرق فيه لمباحث بلاغية متنوعة، فتناول الاستعارة والتشبيه والتعريض والالتفات والجناس والطباق، وغيرها من المباحث، مما يدل على أن مفهوم البديع عنده، وفي عصره كان ما يزال عاما يدل على البلاغة والبيان.

وكان الدافع إلى هذا الكتاب عنده، هو إثبات أن فنون البديع قديمة عند العرب، توجد في الشعر العربي القديم، وفي القرآن الكريم والحديث النبوي وفي كلام العرب. وهو بذلك يرفض رأي القائلين بأنها من ابتداع الشعراء المحدثين. لذلك جاء كتابه غنيا بالنصوص والشواهد من القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الصحابة الكرام والشعر العربي القديم وكلام العرب.

ثم نشطت الكتابات النقدية في القرن الرابع الهجري، وكانت تخوض في مباحث البيان والبديع، وتدلي بنظرات فاحصة دقيقة، كما هو الحال في "عيار الشعر لابن طباطبا العلوي"، الذي عرض فيه لكثير من مباحث البلاغة كالتشبيه والتعريض والمبالغة وحسن القطع والتخلص.

ويعد كتاب الموازنة للآمدي دراسة تطبيقية لبعض المباحث البلاغية كالاستعارة والمحسنات البديعية في شعر أبي تمام والبحتري، وكذلك الأمر في "كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني، الذي توسع في الحديث عن البديع وفنونه وعن الاستعارة والتشبيه في سياق دفاعه عن المتنبي. وتضمن كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر مباحث بلاغية مهمة.

✓ **دراسات لبعض المتأدبين:**

من أبرزها كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري الذي فصل القول في الإيجاز والإطناب والمساواة وفي التشبيه والسجع والإزدواج وأفرد البديع بخمسة وثلاثين بابا. وفي القرن الخامس بزغ نجم ابن رشيق القيرواني فصنف مصنفه "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، وعرض فيه آراء البلاغيين قبله، وأدلى بملاحظاته وآرائه فيها. وقد عاصره صاحب كتاب سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي، وهو أول من جعل الفصاحة خاصة بالألفاظ مفردة ومركبة، بينما جعل البلاغة تشمل الألفاظ والمعاني جميعا، وهو أيضا أول من فصَّل القول في الجرس الصوتي للحروف، وأطنب في الحديث عن كثير من فنون البيان والبديع.

3) ازدهار الدرس البلاغي مع عبد القاهر الجرجاني

قرر عبد القاهر منذ البداية أن القرآن معجز، وحاول أن يستكشف فيه مواطن الإعجاز، واستدل على أن مواطن الإعجاز ليست هي الألفاظ ولا ترتيب الحركات والسكنات، ولا يتحقق الإعجاز في الفواصل ولا في الاستعارة، وإنما الإعجاز في النظم والتأليف.[1]

وأما المقصود بالنظم عنده فيقول: "واعلم أن ليس النظمَ إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ رسومه التي رسمتْ لك، فلا تخل بشيء منها."[2] ويؤكد ذلك بقوله: "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه -إن كان صوابا – وخطؤه – إن كان خطأ – إلى النظم ويدخل تحت الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أُصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له"[3]، وبعبارة أخرى فإن من أراد أن يحكم على مدى الصواب والخطإ في النظم فلا بد له من أن يعالج قضايا التقديم والتأخير والفصل والوصل والإظهار والإضمار والاستفهام والنفي أو ما أصبح من بعد عبد القاهر يسمى "علم المعاني".

لقد أدرك عبد القاهر الجرجاني بوعيه الفذ أن ثنائية " اللفظ والمعنى" قد أصبحت خطرا على النقد والبلاغة معا. أما على المستوى النقدي فإن الانحياز إلى اللفظ قتل "الفكر"، الذي يعتقد الجرجاني أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظة على أخرى. وأما على المستوى البلاغي فإن الجرجاني لم يستطع أن يتصور الفصاحة في اللفظ وإنما هي في تلك العملية الفكرية التي تصنع تركيبا من عدة ألفاظ. وقد عاب الجرجاني النقاد القدامى ووصفهم بالجهل الفاحش حين لجأوا إلى هذه القسمة أو حين احتموا بذلك التصور (اللفظ والمعنى)[4].

ومن جهة أخرى فإن الجرجاني قد خطَّأَ المنحازين إلى جانب المعنى بشدة لا تقل عن شدته في تخطئة من ذهبوا إلى إبراز مميزات اللفظة المفردة، فقال: " واعلم أن الداء الدوي والذي أعيا أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية، إن هو أعطى، إلا ما فضُل

---

[1] - ينظردلائل الإعجاز، ص 385 وما بعدها.

[2] - دلائل الإعجاز، ص 81.

[3] - دلائل الإعجاز، ص 82-83

[4] - ينظر دلائل الإعجاز 395 -396 و 410 وما بعدها.

عن المعنى، يقول: ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر"[1].

وفي سياق حجاج الجرجاني وردوده على أنصار اللفظ وأنصار المعنى، نجد مباحث بلاغية متميزة، أفرغ فيها الجرجاني جهده في تبيين أمر البلاغة فيها. وقد عالجها بطريقة تحليلية تظهر قدراته القرائية البديعة للنصوص موضوع الدراسة والتحليل.

وهكذا تنوعت موضوعات البلاغة عنده في كتابيه "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز"، لكن ذلك التنوع لم يؤثر على وضوح الرؤيا عند المؤلف. فقد خص كتابه الأول لأساليب البيان، بينما كاد يفرد كتابه الثاني لأساليب علم المعاني، لولا ما استدعاه حجاجه وحديثه عن النظم من استحضار لأساليب أخرى كالاستعارة والمجاز والكناية، لكن في سياق حديثه عن النظم وفي رده على أنصار اللفظ، إذ بين أن المزية في هذه الأساليب لا ترجع إليها باعتبارها ألفاظا، بل إلى التركيب والتأليف والنظم الذي وردت فيه.

يتضح مما سبق، أن الدرس البلاغي العربي قد عرف تطورا وازدهارا مع عبد القاهر الجرجاني، فإليه يعود الفضل في وضع علمي البيان والمعاني، وقد أبدع فيهما إبداعا متألقا لايزال محط اعتراف وإعجاب الدارسين إلى الآن؛ إذ شكل كتابه "أسرار البلاغة" العمدة في علم البيان، بينما عُدَّ كتابه "دلائل الإعجاز" العمدة في علم المعاني. حتى إن من جاء بعده وجد نفسه أمام عمل بلاغي كبير لا يضاهى ولا ينافس، فشغل بالكتابين، واقتصر جهد البلاغيين بعده على شرح الكتابين وتهذيبهما أو تلخيصهما أو تطبيق أرائه في التفسير والشرح.

والباحث في أعمال الجرجاني، يجد اشتغالا متميزا على النصوص والخطابات المستشهد بها، وتحليلا بلاغيا عميقا لها، وفهما دقيقا لدلالاتها ولوظائف أساليبها البلاغية في التعبير عن تلك الدلالات والمقاصد، وتوظيفا رائدا للمنهج التكاملي في التحليل والتفسير، فالبلاغة عنده لا تنفصل عن الصرف والنحو وغيرهما في تحقيق وظائف الخطاب القرآني. يقول عبد القاهر الجرجاني في قوله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم٘ تغْنَ بالامسِ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يونس 24.

« ألا ترى إلى نحو قوله عز وجل: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الارض مما ياكلُ الناس والانعام حتى إذا أخذتِ الارضُ زخرفها وازَّيَّنتْ وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا

[1] - دلائل الإعجاز ص 251-252.

ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تغْنَ بالامسِ). كيف كثرت الجمل فيه حتى إنك ترى في هذه الآية عشْر جملٍ إذا فصلت . وهي وإنْ كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة، فإنَّ ذلك لا يمنع من أن تكون صورة الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة. ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض وإفراد شطر حتى إنك لو حذفتَ منها جملةً واحدة من أي موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه.

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض والأغراض الكثيرة التي كل واحد منها منفرد بنفسه، بل بعد جمل تنسّق ثانية منها على أوله وثالثة على ثانية وهكذا. فإن ما كان من هذا الجنس لم تترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها والثالثة بعدهما...»[1].

ويأتي هذا التحليل العميق عنده في معظم المباحث التي يحاجِج فيها أنصار اللفظ. فقد صنف عبد القاهر الجرجاني بابا من أهم أبواب الكتاب في الاستدلال على أن المزية لا تكون للفظ أو للأسلوب من حيث إنه أسلوب أو لفظٌ، بل لما يؤديه من مقاصد وأغراض[2]، ولما يأتي عليه من طرق إسناد في تراكيبه ونظمه وترتيب مكوناته. وقد توقف عند نماذج للاستعارة فبين كيف أسهمت عناصر أخرى مرتبطة بالتركيب والوصل والنظم في ما صار لها من المزية والحسن، يقول: "ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا)...لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرفَ إلا إليها، ولمْ يروا للمزية موجبا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام = لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سُلِكَ بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسندُ إليه، ويؤْتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده، مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيدٌ نفساً".[3]

فعبد القاهر الجرجاني في تحليل هذا الخطاب القرآني بيَّن أن الاستعارة لم تنفرد بما حققه هذا الكلام من أغراض ومعان، بل ساندها في ذلك التركيب النحوي للآية، الذي تم فيه إسناد الفعل (اشتعل) إلى الفاعل غير الحقيقي (الرأس) وصار فيه الفاعل الحقيقي (الشيبُ) تمييزا. مما اثمر أغراضا ومعاني ما

[1] - أسرار البلاغة ص 88، وقد جاء بهذا الكلام في سياق تمييزه بين التشبيه المفرد والتشبيه المركب.

[2] - دلائل الإعجاز من 87 إلى الصفحة 105، "فصل في أن هذه المزايا في النظم، بحسب المعاني والأغراض التي تُؤم".

[3] - دلائل الإعجاز ص 100.

كان للتركيب الأصلي أن يحققها. يقول: "فإن قلتَ: فما السبب في أن كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل؟ ولمَ بان من المزية بالوجه الآخر هذه البيْنونة؟

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعمَّ جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لمْ يبق منه إلا ما لا يعتدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: "اشتعل شيب الرأس، أو الشيبُ في الرأسِ"، بل لا يوجِب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة."[1]

فالأسلوب البياني، عند عبد القاهر، لا يحقق الأغراض المقصودة بمفرده بل بمعية التركيب النحوي وما يطرأ عليه على مستوى الإسناد من تقديم وتأخير وغير ذلك من أحوال المسند والمسند إليه المعروفة. وتلك المقاصد والأغراض هي مرتبطة بعناصر التخاطب من مخاطِبٍ ومخاطَب ورسالة تخاطبية، وعلى أساسها يحلل البلاغيون الأساليب ومقاصدها وأغراضها.

4) الدرس البلاغي بعد عبد القاهر الجرجاني

شغل البلاغيون بعد عبد القاهر الجرجاني بكتابيه "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز"، وكلفوا بشرحهما وتلخيصهما، وكأن الإمام عبد القاهر الجرجاني أدهشهم، وبدل أن يدفعوا الدرس البلاغي إلى الأمام، إذا بهم يقفون عند حدود المنجز، لكن مع ذلك استمر الاهتمام بمباحث البلاغة العربية، وبتعليمها وشرحها، مما أثمر مكتبة بلاغية عربية غنية بالشروح والتلخيصات.

ومن أبرز البلاغيين الذين أسهموا في تنظيم الدرس البلاغي العربي وتبويبه تبويبا تعليميا، أبو يعقوب السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، إذ جاءت مباحث البلاغة عنده واضحة منظمة، رغم ما طبع عمله من مبالغة في التقسيم والتفريع. وقد اهتم البلاغيون بهذا المصنف.

وأهم بلاغي قام بتلخيص المفتاح هو الخطيب القزويني، فقد صنف تلخيصا دقيقا لمباحثه البلاغية، ذلل فيه صعوباته تذليلا، مع الاستفادة من تلخيص بدر الدين بن مالك وبآراء عبد القاهر والزمخشري، لكنه رأى في هذا التلخيص إجمالا أكثر مما ينبغي فصنف كتابه "الإيضاح"، وهو من أشهر مراجع البلاغة العربية عند الطلاب.

[1] - دلائل الإعجاز 101.

الخاتمة:

نخلص مما سبق إلى أن مسار البلاغة العربية كان مسارا حافلا بالإنجازات، وقد تنوعت الأطراف التي أسهمت في تطور الدرس البلاغي العربي، من لغويين ونقاد ومتكلمين. لكن الإسهام الأكثر وضوحا وبروزا كان لعلماء الدراسات الإعجازية. واتضح ذلك عند عبد القاهر الجرجاني الذي أبدع وتألق،فصار مرجعا في علمي البيان والمعاني.

ولم تخرج المصنفات البلاغية العربية عن ما انتهى إليه عبد القاهر الجرجاني في هذين العلمين، بل صارت تعتمد عليه، وتوضح ما جاء عنده، وتعيد تنظيمه وتقديمه في صورة تعليمية أكثر وضوحا. وحاز السكاكي مكانة مهمة في هذا الشأن، ثم تبعه الخطيب القزويني موضحا ومهذبا.

وكان من الطبيعي أن يجري على البلاغة، ما يجرى على الأدب وعلوم العربية عموما في عصور الانحطاط من جمود ونكوص. لكن هذه البلاغة استمرت في الإبداع العربي، رغم فترات الانحطاط والجمود، ونهضت بعد نهضة الأدب العربي الحديث، وأشرقت شمسها من جديد في أعمال الأدباء العرب الكبار، فجاء الإبداع العربي الحديث في مختلف الفنون دالا على بلاغة القوم، وعلى أن عصور الانحطاط لم تؤثر على الأسلوب العربي الأصيل الذي يبزغ كلما توفرت ظروف الإبداع.

وقد عاد الاهتمام إلى البلاغة العربية، تنظيرا وتعليما ودعوة إلى التجديد. وبرز أعلام وباحثون في المغرب والمشرق، انشغلوا بأمر البلاغة العربية وتطويرها وتجديد النظر إليها، بعدما استفادوا من الاطلاع على المنجز في البلاغة الغربية الجديدة. وشهدت الدراسات البلاغية الحديثة تطورا ملموسا في اتجاه إعادة الاعتبار للبلاغة العربية في علاقتها بالخطاب والتخاطب. لكن الحصيلة التعليمية لاتزال دون الطموح المنشود. فعلى الرغم من كثرة الأبحاث والمؤلفات في هذا الموضوع، إلا أن واقع البلاغة العربية في الثانويات والجامعات العربية ما يزال يدل على ضرورة مضاعفة الجهود قصد النهوض بطرق ومناهج تدريسها.

المصادروالمراجع

- ابن المعتز: كتاب البديع لأبي العباس عبد الله بن المعتز، شرحه وحققه عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى 1433هـ\ 2012م.
- ابن رشيق أبو علي الحسن : العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق الدكتور محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1/1988،1408م.
- ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس، تحقيق عمر فاروق، مكتبة المعارف- بيروت، ط 1
- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره أحمد صقر، المكتبة العلمية، دون طبعة ولا تاريخ.
- أبو عبيدة: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بم المثنى التيمي، تعليق محمد فؤاد، الطبعة الأولة (1374هـ/1954م).
- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، جار إحياء الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى (1371هـ،1952م).
- إحسان عباس: تاريخ النقد عند العرب، نقد الشعر، من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 4 (1404هـ/1983م).
- أسرار البلاغة في علم البيان للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق للدكتورين محمد الاسكندراني ومحمد بمسعود، دار الكتاب العربي، ط 2/1418هـ ، 1998م.
- بدوي طبانة: البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، بدوي طبانة، مطبعة الرسالة، ط2 (1377 هـ -1958م).

الجرجاني عبد القاهر:

- خلف الله: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، حققها وعلق عليها محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3(1976م).
- دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة (1413 هـ، 1992م).
- السكاكي: مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر، ضبطه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2/1407هـ،1987م.

- الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق دي غويه، وتعليقات محمد يوسف نجم وإحسان عباس،دار الثقافة، بيروت(دون رقم ولا تاريخ).
- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة التاسعة.
- عرفة عبد العزيز عبد المعطي: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، ، عالم الكتب، ط1 (1405هـ/1985م).
- العمري محمد:
- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق – المغرب، (يناير 2005)؛
- في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق – المغرب، إفريقيا الشرق – المغرب، ط2 (2002)؛
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تأليف أبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور عبد المنعم خفاجي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (دون تاريخ).